International Journal of Innovation and Applied Studies
ISSN 2028-9324 Vol. 18 No. 4 Dec. 2016, pp. 1239-1259

http://www.ijias.issr-journals.org/

المحافظة على التراث العمراني: قلعة قايتباي برشيد – مصر نموذجا

[Preservation of the architectural heritage : Sultan Qayet-Bey Castle in Rosetta – Egypt as example]

Mahmoud Ahmed Darwish

Professor of Islamic Archaeology,
Faculty of Arts, Minia University, Egypt

ABSTRACT: Rosetta is one of the cities in Egypt Lake County, located in the west of the Nile at the mouth of the Rosetta branch of the Mediterranean, and represents one of the corners of the triangle occupied by Delta between Cairo and Damietta and Rosetta, and is one of the important Egyptian ports.
Mamluk sultans were interested in the establishment of military fortifications and means of enemy control, where the Lighthouse of Al-Zahir Baybars was the most important of these fortifications, Sultan Qayet-Bey established a tower, the sources said that he visited Rosetta in 884 AH (1429 AD) for the detection of this tower.
Before (1985), This castle landmarks were not clear, which is not conducive to the study of the architectural elements, Researcher was General Manager for the Rosetta effects, and Head of the Mission of the Islamic and Coptic monuments sector in the Egyptian Antiquities Authority, and supervised the excavation and restoration of the castle, and rehabilitation to be a tourist attraction, within the national project activities to restore the monuments of Rosetta in (1985).
The researcher was able to place a large number of drawings and illustrations of the elements of the castle after identifying all the architectural features and determine the time periods that have passed these milestones, and if possible to identify many of the renovation work throughout the period since the thirteenth century until the nineteenth century and that during the reign of Al-Zahir Baybars, Sultan Qayet-Bey, Sultan Al-Ghouri, Ottoman era and Muhammad Ali, as well as possible access to this castle that had been established along the lines of the lighthouse of Alexandria, which was set up by the castle.
Excavations began in preparation for the restoration of the castle, it has made the site depths reached three meters was largely under the groundwater level in search of the foundations of the castle and in particular the internal tower internal parts.
Despite the short time that has the excavations, which did not exceed the month, but it resulted in a very significant results, where possible, follow the foundations of the castle and the study of the merits of excavations, documented and photographed, and draw a full outline of the castle in each period that passed by.
Thus possible to put an end to the controversy that erupted around this castle and its history and the evolution of its military and its elements, and this has not happened before, it has also been described Citadel, which never one to be described or has studied complete a thorough study.

KEYWORDS: Castle, Qayet-Bey, Mamluk, Lighthouse of Alexandria, Zahir Baybars, French campaign

ملخص البحث: تعد مدينة رشيد إحدى مدن محافظة البحيرة بمصر، وتقع غربي النيل عند مصب فرع رشيد في البحر المتوسط، وتمثل إحدى زوايا المثلث الذي تشغله الدلتا بين القاهرة ودمياط ورشيد، وتعد أحد الثغور المصرية الهامة. وقد اهتم سلاطين المماليك بإنشاء الاستحكامات الحربية ووسائل مراقبة العدو، حيث كان من أهم هذه الاستحكامات الفنار الذي عمره الظاهر بيبرس، وأقام السلطان قايتباي برجا، فقد ذكرت المصادر أنه قام بزيارة مدينة رشيد في عام 884هـ (1429م) للكشف عن هذا البرج.

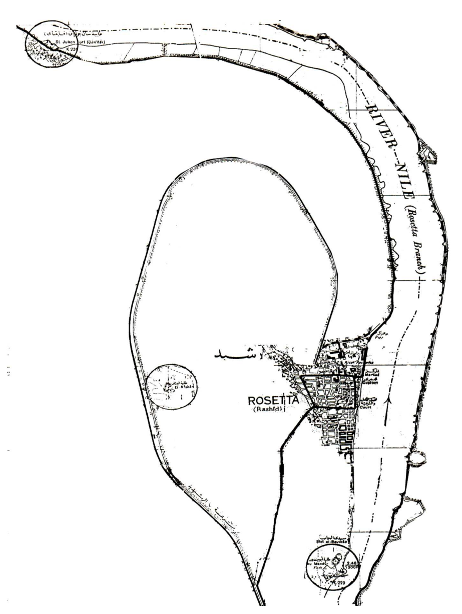
قبل عام (1985) لم تكن معالم هذه القلعة واضحة بما يكفى لدراسة عناصرها المعمارية، وقد كان الباحث مديرا لمنطقة آثار رشيد ورئيسا لبعثة قطاع الآثار الإسلامية والقبطية بهيئة الآثار المصرية، وأشرف على أعمال الحفر والترميم للقلعة، وإعادة تأهيلها لتكون مزارا سياحيا، ضمن فعاليات المشروع القومي لترميم آثار مدينة رشيد عام (1985).
استطاع الباحث وضع عدد كبير من المخططات والرسوم التوضيحية لعناصر القلعة بعد تحديد جميع معالمها المعمارية وتحديد الفترات الزمنية التي مرت هذه المعالم كل على حده، وأمكن تحديد العديد من أعمال التجديد طوال الفترة منذ القرن الثالث عشر حتى القرن التاسع عشر وذاك في عهد الظاهر بيبرس والسلطان قايتباي والسلطان الغوري والعصر العثماني وعصر محمد على، كذلك أمكن الوصول إلى أن هذه القلعة قد أنشئت على غرار فنار الإسكندرية الذي أنشئت عليه قلعتها.
بدأت أعمال الحفائر تمهيدا لترميم القلعة، وقد تم إجراءها بالموقع بأعماق وصلت إلى ثلاثة أمتار كان أغلبها تحت مستوى سطح المياه الجوفية بحثا عن أساسات القلعة وبصفة خاصة البرج الداخلي والأجزاء الداخلية.
ورغم قصر المدة التي تمت فيها أعمال الحفائر والتي لم تتجاوز الشهر إلا أنها أسفرت عن نتائج هامة جدا، حيث أمكن تتبع أساسات القلعة ودراسة حيثيات الحفائر وتوثيقها وتصويرها، ورسم مخطط كامل للقلعة في كل فترة من الفترات التي مرت بها.
وبذلك أمكن وضع حد للجدل الذي ثار حول هذه القلعة وتاريخها وتطور موقعها وعناصرها الحربية وهذا ما لم يحدث من قبل، كما تم وصف القلعة التي لم يسبق لأحد أن وصفها أو قام بدراستها دراسة مستفيضة كاملة.

كلمات دلالية: قلعة، قايتباي، العصر المملوكي، فنار الإسكندرية، الظاهر بيبرس، الحملة الفرنسية.

1 مصادر الدراسة

في النصف الثاني من عام (1984) بدأ التحضير لمشروع ترميم آثار مدينة رشيد (شكل 1)، ولما كانت القلعة إحدى أهم الاستحكامات المصرية وواحدة من القلاع التي تنسب إلى السلطان المملوكي الأشرف قايتباي، فقد بدأت الدراسات لإعداد مشروع متكامل لترميمها بعد أن هدمت جدرانها وأبراجها.

وقد استند البحث على كتابات الرحالة الأجانب، والمصادر والمراجع، والمخططات المحفوظة بالمجلس الأعلى للآثار، والدراسة التاريخية لمدينة رشيد واستحكاماتها الحربية.



شكل 1. موقع قلعة قايتباي وقلعة أبو مندور

1.1 المصادر والمراجع

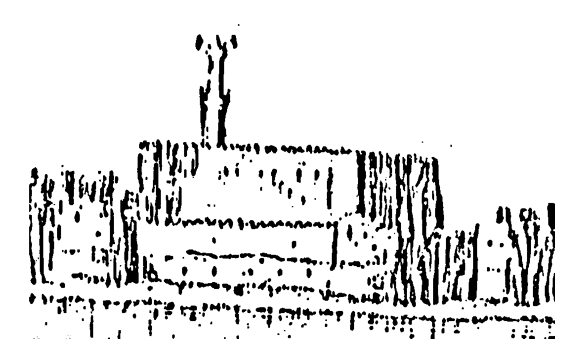
تعد كتابات الرحالة الأجانب الذين قاموا بزيارة القلعة من أهم المصادر ومنهم بيري رايس (1521م) وسيزار لامبرث (1627م) وفانزليب (1672-1673م) وبول لوكاس (1699م) وفان إيجمونت وهيمان ونوردن (1795) وريتشارد بوكوك (1737م) وسافاري (1777م) وسونيني ولا لارم وفيفان دينو عام (1798م) وجولوا (1798).

فقد ذكر بيري رايس أنه اكتشف على بعد عشرة أميال من رأس مدينة رشيد برجا مشابها لقلع منتصب في مدخل فرع النيل من الجنوب وبرج آخر أمام المدخل على بعد ثلاثة أميال من المدينة"[1] .

وذكر سيزار لامبرث أنه يوجد في رشيد قلعتين متقابلتين في الميناء يحميهما مائة وخمسون جنديا، والبناء الأصلي في تصميمه يشبه بدرجة كبيرة الحصن الداخلي في قلعة قايتباي بالإسكندرية، (زكي، يوليو 1944).

وذكر فانزليب أنه كان يوجد بها جب (البرج الداخلي) يرتفع حوالي (12) قدما فوق ارتفاع السور الخارجي وأبراج الأركان، وكان هذا البرج الذي يتوسط البناء (الملجأ الأخير لرجال القلعة) يحتوى على المخازن المقباة، [2].

وذكر بول لوكاس أنه يوجد حصنان كبيران (زكي، يوليو 1944)، وذكر فان إيجمونت وهيمان [3] أن الأبراج كثيرة الزوايا قطر كل منها (20) قدما، وبأجزائها العليا فتحات للمدافع وعددها (15) مدفعا لا يصلح أغلبها للعمل، ووضع نوردن صورة تظهر بها المئذنة، ويتبين ارتفاع البرج الداخلي المزود بفتحات تهوية تشبه المزاغل وعليه شرافات دائرية (شكل 2) [4].



شكل 2. قلعة قايتباي (عن نوردن)

وذكر ريتشارد بوكوك أنها عبارة عن بناء له أبراج مستديرة، وبناؤها من الطوب والحجارة، ورجح أنها من مخلفات الصليبيين وأن ما عمله قايتباي ليس إلا مجرد إصلاح [5]، وذكر سافاري أنها مربعة بها أربعة أبراج مركبة فيها المدافع، كما زارها سونيني في نفس العام وذكر أن مبانيها كانت مهدمة وآلت للخراب، ويكرر لا لارم ذلك أيضا، (زكي، يوليو 1944).

وذكر فيفان دينو عام (1798م) أنها حصن كبير مربع مقام على زواياه أربعة أبراج ضخمة، وذكر أن الطابق الأرضي كان به مخازن مملوءة بالأسلحة كالقسي والسهام والسيوف [6].

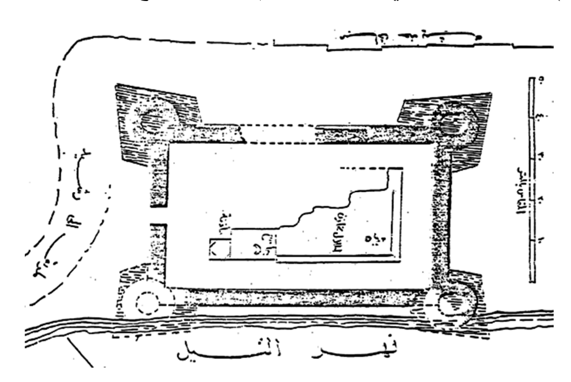
وكانت القلعة قد أهملت منذ القرن الثامن عشر وسقطت أجزاء كثيرة منها،[7]، [8]، [9]، فقد أكد جولوا (Jollios) أنه عند قدومه أثناء الحملة الفرنسية مر على أنقاض حصن مهجور، كما ذكر أنه بعد تحطيم الأسطول الفرنسي في موقعة أبى قير قرر الجيش الفرنسي تنظيم الحصون الدفاعية على الشواطئ، ((جولوا، 1978، زكي، يوليو 1944). ووضع حاميات بها، فأعيد بناء حصن رشيد، وأطلق الفرنسيون عليه اسم قلعة جوليان (Jullien).

ومن المراجع التي تناولت القلعة بشكل مباشر أو غير مباشر [9]، (Adler) [10] و (Allard) [11] و [12]،[13] (Thearch)، وجولوا (جولوا، 1978). وجراتيان لوبير (جراتيان لوبير، 1978)، وعبد الرحمن زكي (زكي، 1941، 1944، 1960). وسعاد ماهر (ماهر، 1985).

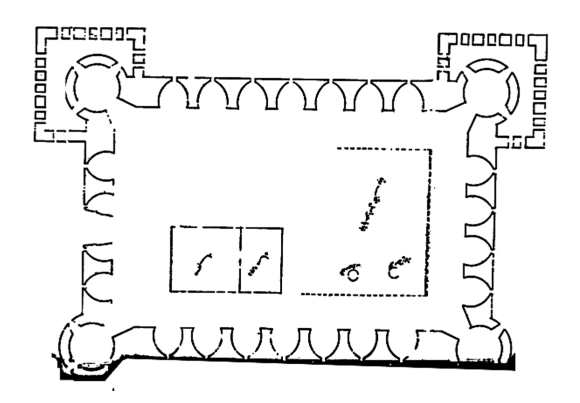
1.2. مخططات المجلس الأعلى للآثار

قبل عام (1985) لم تكن معالم القلعة واضحة بما يكفى لدراسة عناصرها المعمارية، وسبق أن خرجت بعض المخططات والرسوم التوضيحية للقلعة وقد ظهرت بها بعض العناصر التي أمكن الاستفادة منها أثناء البحث وكذلك أثناء الحفائر، وأول هذه الرسوم ما يوضح القلعة من اتجاه الشرق حيث تظهر بعض عناصرها.

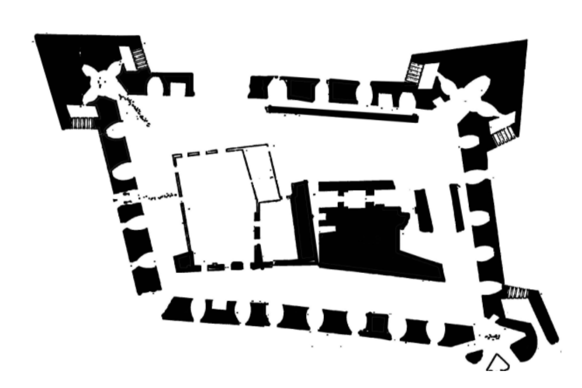
وهناك رسم آخر تظهر فيه القلعة بشكل مستطيل ويقع المدخل في الجنوب وفى الأركان تقع الأبراج الأربعة وهى دائرية تحيط بها أبراج شبه مربعة، وفى وسط القلعة أطلال مخازن وجامع ومئذنة (شكل 3)، وهناك مخططان للقلعة الأول يوضح المخطط المستطيل وفى الأركان أبراج دائرية يحيط بها أبراج مربعة، وفى الوسط بقايا حواصل متخربة بها دورة مياه ومسجد (شكل 4)، أما المخطط الثاني فهو غير منتظم وتتخذ الأبراج فيه شكلا أقرب إلى الواقع (شكل 5).



شكل 3. قلعة قايتباي (عن مركز التسجيل)



شكل 4. قلعة قايتباي (عن عبد الرحمن زكي)



شكل 5. قلعة قايتباي (عن مركز التسجيل)

كما أن هناك رسما للواجهة القبلية يظهر به البرج الجنوبي الغربي وبعض مزاغل بالواجهة والمدخل، كذلك الواجهة الغربية المتهدمة، والواجهة البحرية وتظهر بها آثار البرجين الشمالي الشرقي والشمالي الغربي، وهناك رسم يبين قطاعا بالبرج الجنوبي الغربي وقطاعا رأسيا في البرج الداخلي.

1.3 الدراسة التاريخية لمدينة رشيد واستحكاماتها الحربية

كان لموقع مدينة رشيد (بولبتين) على البحر المتوسط ومدخل نهر النيل أثر كبير في زيادة الاهتمام بتحصينها منذ عصر الدولة الحديثة (1575-1085ق.م)، ففي عصر الأسرة التاسعة عشر (1308-1186ق.م) قام الملك منفتاح ببناء تحصينات في رشيد للدفاع عن البلاد ضد هجمات القراصنة في المدة من (1224:1214ق.م). وهذا يوضح الخطر الذي كانت تتعرض له الحدود الغربية والسواحل المصرية منذ السنوات الأولى للأسرة (19)، (مبارك، 1888، كامل، 1953، رمزي، 1958، 2/2 الفلكي، 1967. قدري، 1985)، [13]، [14]، [15]، [16]، [17].

وقام رمسيس الثاني ببناء تحصينات على طول شواطئ البحر المتوسط، كما أقام بسماتيك الأول مؤسس الأسرة (26) معسكرا برشيد عام (663ق.م) كان يضم الميليزيين من سكان بعض جزر اليونان وغيرهم من القوات المرتزقة التي استخدمها في جيش مصر. وعندما غزا الإسكندر مصر وقام ببناء مدينة الإسكندرية (331ق.م)، كانت بولبتين سوقا رائجة، واستمرت بها صناعة العجلات الحربية، وكان بها معبد كبير (معبد بولبتينوم) يضم نسخة من القرار الذي أصدره مجمع الكهنة للملك بطليموس الخامس عام 196ق.م (حجر رشيد)، ولكنها بدأت في الاضمحلال بعد بناء الإسكندرية وتحول التجارة إلى الفرع الكانوبي، واستمرت حتى الفتح العربي تمثل نطاقا مسيحيا، (قدري، 1985. كامل، 1947. خفاجة، 1966. جولوا، 1978. بل، 1972. توفيق والناصري، 1977)، [18]، [19]، [20]، [21].

ذكرت المصادر أن عمرو بن العاص بعد أن فتح مدينة الإسكندرية عقد صلحا مع صاحب رشيد، وقد أولى اهتمامه بالثغور والسواحل خشية مهاجمتها من قبل البيزنطيين. وعندما قامت الدولة العباسية كان الخطر البيزنطي لا يزال يهدد الدولة، فأمر المتوكل العباسي واليه عنبسة بن إسحق ببناء مجموعة من الربط عام 239هـ (853م)، وقد نشأت المدينة الإسلامية نشأة حربية في عهد أحمد بن طولون عام 256هـ (870م) على أطلال مدينة بولبتين وقريبا من الرباط، (النويري السكندري، 1968-1976. المقريزي، 1980. كلوت بك، 1930. ماهر، 1966. جولوا، 1978. نيبور, 2012)، [19]، [22]، [23].

استمر التهديد الخارجي لرشيد طوال العصر المملوكي عندما استولى المغول على بغداد عام 656هـ (1258م)، ودخلت دولة المماليك المعركة ضد الصليبيين والمغول منذ عهد بيبرس عام 671هـ (1272م). وأنشئ بها منار عمره الظاهر بيبرس، وبأسفله برج عمره صلاح الدين بن عرام، وأغار الفرنج على رشيد في عهد الظاهر أبو سعيد جقمق عام 841هـ (1438م). مما دفعه في عام (845-857م) إلى تزويد المدينة بالجنود لحمايتها، ومن ثم صارت مجرد ثغر حربي، (ابن دقماق، 1893. المقريزي، 1896. النويري، 1968-1976. ابن تغري بردي، 1926-1975. السخاوي، 1953. ابن إياس، 1893. عاشور، 1959. ماهر، 1967)، [9]. كما ازدادت قوة الأتراك العثمانيين الذين بدأت المصادمات بينهم وبين المماليك تتخذ شكلا خطيرا خاصة في عهد السلطان قايتباي الذي أولى الثغور اهتماما بالغا، واعتاد على زيارتها لتفقد القلاع والحصون. وأنشأ عام 876هـ (1472م) برجه برشيد، ومثيلا له بالإسكندرية، كما أمر السلطان الغوري بإنشاء سور على ساحل البحر وأبراج لحفظ الثغر، (السخاوي، 1953. ابن إياس، 1893. المقريزي، 1980. عبد الوهاب، 1956-1957. زكي، 1960).

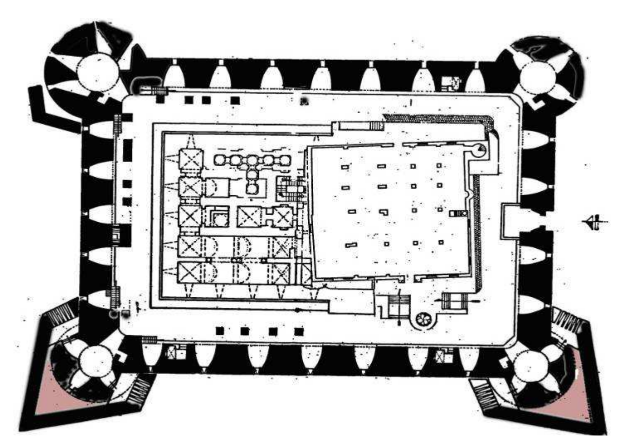
لم يهتم العثمانيون بإنشاء الاستحكامات في رشيد، حيث ساهمت الترسيبات التي تمت في هذه الفترة في إبعاد القلعة كثيرا عن البوغاز، فقد ذكرت المصادر أن السلطان سليم أصدر أمرا في عام (1517م) بنقل جبال الأنقاض التي كانت تهدد القاهرة وبقية مدن مصر برا ونهرا إلى مصبات النيل. وقلت الوظيفة الحربية للقلعة في حين كانت مقرا لحامية المدينة فقط. وكانوا يبيتون في الليل داخلها ويكسبون أقواتهم نهارا في مدينة رشيد، (لوبير، 1978)، [2].

وعندما قدم الفرنسيون إلى مصر اهتموا بتحصين القلعة بعد هزيمتهم في أبي قير (1799) خشية أن يدخل الأسطول الإنجليزي إلى فرع رشيد، وقاموا بتجديدها وتعديل عناصرها الحربية، وأشرف على هذه الأعمال الجنرال بوشار الذي عثر على الحجر الشهير الذي عرف بحجر رشيد، (الجبرتي، 1958. هيرولد، 1986).

عنى محمد على بإقامة القلاع والاستحكامات فشرع في بناء سور حول مدينة رشيد وأبراج خارجها، واستدعى مهندسا فرنسيا في الاستحكامات يسمى جاليس (Galice)، وعهد إليه اختيار السواحل ووضع مشروع لاستحكاماتها، وقد قام بتحصين قلعة قايتباى ووضع فيها أربعة عشر مدفعا، وأصدر إسماعيل باشا تعليمات بترميم الحصون وتسليحها بالمدافع، (الجبرتي، 1958. الرافعي، 1951).

2. الدراسة التحليلية

تناولت تطور التخطيط والعناصر المعمارية التي تشمل الأسوار والأبراج والبرج الداخلي، من خلال الحفائر (شكل 6)، وأصول التخطيط منذ العصور القديمة والعصر العباسي حتى العصر المملوكي وتجديدات الحملة الفرنسية ومحمد على.



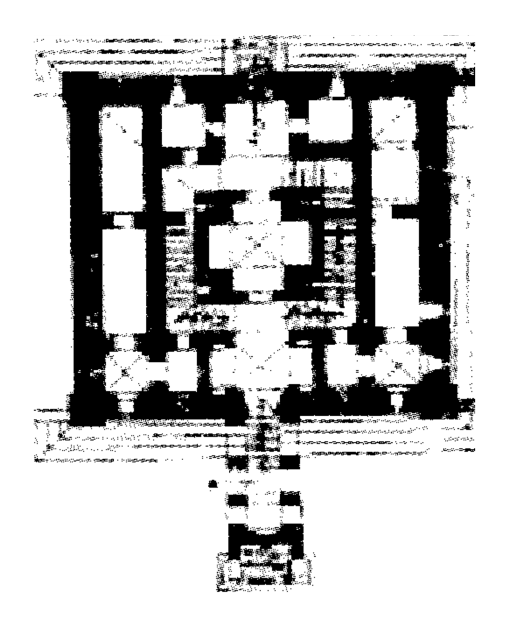
شكل 6. قلعة قايتباي من خلال الحفائر (رسم الباحث)

2.1 العصر المملوكي

حظيت مدينة رشيد في العصر المملوكي ببناء فنار وقلعتين والسور المحيط بالمدينة، ويرجع الفنار إلى الظاهر بيبرس (758هـ/1261م)، وترجع القلعة الأولى إلى صلاح الدين بن عرام (775هـ/1373م)، أما القلعة الثانية فأنشأها السلطان قايتباي 876هـ (1472م)، أما السلطان الغوري فأقام الأسوار حول المدينة عام 921هـ (1516م)، وذكرت المصادر هذه التحصينات دون أن تحدد مواضعها، حتى أن أحدا لم يتوصل إلى مكان الفنار أو برج صلاح الدين بن عرام، (ابن دقماق، 1893. المقريزي، 1896. ابن إياس، 1893. السخاوي، 1953).

ورغم أن أحدا من المصادر أو المراجع التي تحدثت عن قلعة قايتباي في العصر المملوكي لم يذكر شيئا عن الموقع الذي أنشأ فيه السلطان قايتباي قلعته، وهل اعتمد على أساسات قديمة لبناء القلعة، أم أن الموقع كان خاليا من أيه إنشاءات قديمة. فقد استطاع الباحث التوصل إلى نتائج عديدة فيما يتعلق بهذا الأمر، وتمت محاولات للتحري عن الموقع ودراسة التفاصيل المعمارية للبرج الداخلي، وهي المرة الأولى التي يتم فيها وضع مخطط لهذا البرج موضحا به الأجزاء الظاهرة والاحتمالات المتعلقة بالأساسات وتكوين العناصر وامتدادات الجدران.

وقد تم التوصل إلى نتيجة هامة تتلخص في أن البرج الداخلي كان بداية إنشاء هذه القلعة، واتضح من فحص الجدران أن أساسات هذا البرج أقدم من أساساتها، وثبت مدى التشابه بين هذه الأساسات وبين أساسات الدور الأرضي من البرج الداخلي من قلعة قايتباي بالإسكندرية والذي اعتمد على أساسات فنار الإسكندرية (شكل 7-8).



شكل 7. فنار الإسكندرية (عن تيرش)



شكل 8. البرج الداخلي بقلعة قايتباي بالإسكندرية

كما ثبت أن السلطان قايتباي قد اعتمد على أساسات الفنار الذي أنشأه الظاهر بيبرس على غرار فنار الإسكندرية، ومستمدا أصوله منه، والذي كان يضم حصنا حول هذا البرج مزودا بالمزاغل ومكونا من دورين، وفى زوايا الحصن أقيمت أربعة أبراج دائرية بكل منها ثلاثة مزاغل.

أقام السلطان قايتباي قلعة الإسكندرية على أساسات الفنار الذي كان موجودا هناك، وبالرجوع إلى المصادر نجد أنه كان موجودا في زمن الظاهر بيبرس الذي بنى به مسجدا عام 683هـ (1274م)، وقد ثبت أنه أنشأ فنار رشيد متأثرا بمثيله الموجود بالإسكندرية، وتناولت الدراسات قلعة قايتباي بالإسكندرية من حيث التخطيط والعناصر المعمارية بمنهج وصفي باعتبار أنها هي الفنار. وكان بنفس تخطيط القلعة إلا من بعض التعديلات التي أجراها قايتباي، لكونه الأساس الذي أقيمت عليه، (المقريزي، 1980. تيرش، 2009) ، [10]، [11]، [12]، [24]، [25].

ويتضح أن فنار الإسكندرية يشبه مخطط الدور الأول من البرج الداخلي من قلعة قايتباي برشيد، مما يثبت أن السلطان قايتباي استخدم الفنار الذي يرجع إلى عصر الظاهر بيبرس كأساس لقلعته التي أنشأ أسوارها حوله مع بعض التعديلات عليه. وبالعودة إلى نص ابن دقماق الذي يذكر فيه أن الظاهر بيبرس عمر فنارا برشيد يتضح فيه الفرق بين كلمتي التعمير والإنشاء حيث استخدم الظاهر بيبرس أساسات مبنى قديم لإنشاء الفنار، (ابن دقماق، 1893).

أما عن أصول تخطيط فنار الإسكندرية، فذكرت المصادر أن الملك مرنبتاح قام بإنشاء سلسلة من التحصينات في المدة من (1224:1214ق.م) لحماية مصبات النيل، ومنها قلعة على جزيرة فاروس وقلعة برشيد، وقام رمسيس الثالث ببناء سلسلة من التحصينات على طول شواطئ البحر المتوسط، وأقام بسماتيك الأول عام (663ق.م) المعسكر الميليزي برشيد.

ويتضح التشابه بين القلعتين وقصر مرنبتاح في منف وقصرين لرمسيس الثالث في هابو، كما أنشأ المتوكل العباسي رباطا على كل منهما في عام 239 (853م)، وهذا يدل على أنه ربما أنشأ الفنار برشيد على أساسات رباط المتوكل، وأن فنار الإسكندرية قد استخدم أساسا للتحصينات الحربية ووسائل المراقبة عبر العصور، وظل مخططه نموذجا يُحتذى عند إنشاء أي مبنى حربي، كما يدل ذلك أن المتوكل قد استخدم مخطط الفنار لإنشاء رباطاته على سواحل البحر المتوسط ومنها رباط رشيد الذي استمرت أساساته حتى استخدمها بيبرس لإنشاء الفنار الذي أقام السلطان قايتباي حوله قلعته، وكان يحيط به سور مدعم بالأبراج نصف الدائرية، (المقريزي، 1980. كامل، 1947. خفاجة، 1966. قدري، 1985). وقد تأثرت العناصر المعمارية لقلعة قايتباي برشيد بالقلاع الشامية من عصر الظاهر بيبرس.

وبنظرة إلى مخطط السور الغربي لقلعة بغراس التي أجرى الظاهر بيبرس بها عدة إصلاحات في عام 628هـ (1268م) نجد تشابها واضحا مع السور المحيط بقلعة رشيد، مما يرجح أن يكون السور قد أقيم على أساسات ترجع إلى عصر الظاهر بيبرس الذي قام بعملية ترميم وتعمير واسعة لقلعة الحصن (حصن الأكراد) في عام 669هـ (1271م) خاصة الواجهة الجنوبية أو الجبهة الدفاعية الرئيسية، وكانت تتألف مثلها مثل الواجهة الغربية الطويلة من سور واحد تحميه حصون بارزة نصف دائرية.

أما القسم الذي تم تعميره فيضم جزء من السور الخارجي يتكون من خمسة أبراج نصف دائرية، ويوجد ستة مزاغل بين كل برجين فيما عدا البرجين الثالث والرابع فيوجد بينهما سبعه مزاغل، ويتكون كل برج من الأبراج الخمسة من دور قاعة مربعة يعلوها قبوان متقاطعان تمثل تخطيطا متعامدا وحولها ثلاثة مزاغل والمدخل، أما المزاغل الثلاثة فكل منها عبارة عن دخلة مستطيلة تنتهي بفتحة الرمي المثلثة، وتشبه مزاغل السور مزاغل الأبراج، ومن أهم معالم هذا السور وجود

دعامات مستطيلة من الداخل تحصر بينها وبينه ممرا، وتتشابه كذلك مزاغل السور الجنوبي من الحصن الداخلي ومزاغل القسم الجنوبي من السور الغربي من نفس الحصن مع مزاغل السور الغربي، (فولفغانغ مولر، ص ص76-78 شكل5-14)، [26]، [27]، [28]، [29].

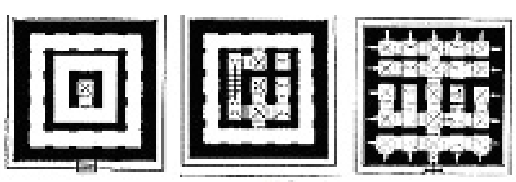
ومما لاشك فيه أن الأعمال التي قام بها جلبان الظاهري (الظاهر بيبرس) بقلعة البحر بصيدا، وبصفة خاصة في البرج الكبير الحجم ذو الطابقين من الأعمال الهامة التي يمكن الاستناد عليها، حيث يتميز هذا البرج بالأقبية المتقاطعة التي تكون سقوفه، وتتميز هذه القلعة أيضا بالبرج الجنوبي الشرقي الدائري الذي يتكون من ثلاثة مزاغل، كما أن السورين الشرقي والجنوبي للقلعة بهما مزاغل مستطيلة تنتهي بفتحة الرمي المثلثة.

ومن ذلك يتأكد أن الظاهر بيبرس قد اهتم بالتحصينات اهتماما كبيرا، واستمد العناصر المعمارية التي استخدمها في التحصينات من العناصر الموجودة، فقد كان تطور أنواع السلاح سببا لتوسيع المزاغل والاهتمام بالأسوار السميكة التي لا يمكن اختراقها أو لغمها أو ضربها بالدبابات (الكباش)، واهتم كذلك بالأبراج الدائرية المدعمة بالمزاغل الثلاثة ويمثل كل منها من الداخل دورقاعة مربعة يعلوها قبوان متقاطعان وتفتح عليها أربعة أجنحة يمثل الأول منها مدخل البرج، أما الثلاثة الباقية فهي المزاغل التي يمثل كل منها دخلة مستطيلة تنتهي بفتحة الرمي المثلثة، كما زودت الأسوار بالمزاغل المتشابهة مع مزاغل الأبراج. وسنجد عند دراسة تخطيط قلعة رشيد مدى التأثر بتخطيط هذه القلاع.

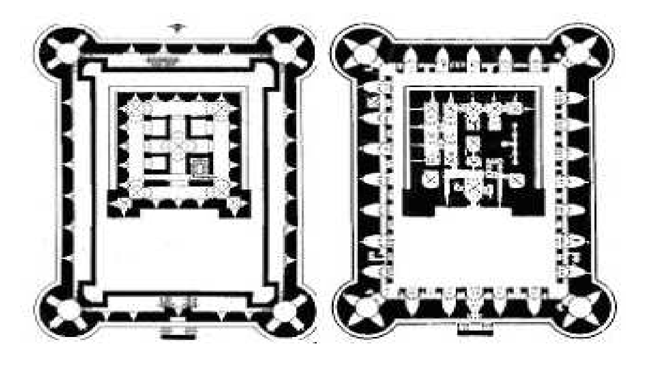
وعندما أنشأ السلطان قايتباي قلعته قام بتعديل بعض أجزاء البرج الداخلي حيث أضاف صهريجا، واستغنى عن بعض العناصر داخل البناء، حيث أقام سورا يحيط بالقلعة مزودا بالعناصر الدفاعية اللازمة لصد أي هجوم. وقام السلطان الغوري بعمل تجديدات بالقلعة أيضا تبعا لتطور الأسلحة، فقام بتوسيع فتحات المزاغل، وأعاد بناء البرج الشمالي الشرقي، (ابن إياس، 1893. المقريزي، 1980).

وقام السلطان الغوري بإجراء التعديلات على القلعة وبصفة خاصة بالأسوار والأبراج، حيث قام بتوسيع المزاغل وتغيير معالم البرج الشمالي الشرقي ليضم أربعة مزاغل بدلا من ثلاثة بكل دور من دوريه، كما قام الغوري برفع بعض المزاغل نتيجة الحاجة إلى وضع المدافع بها، (ابن إياس، 1893).

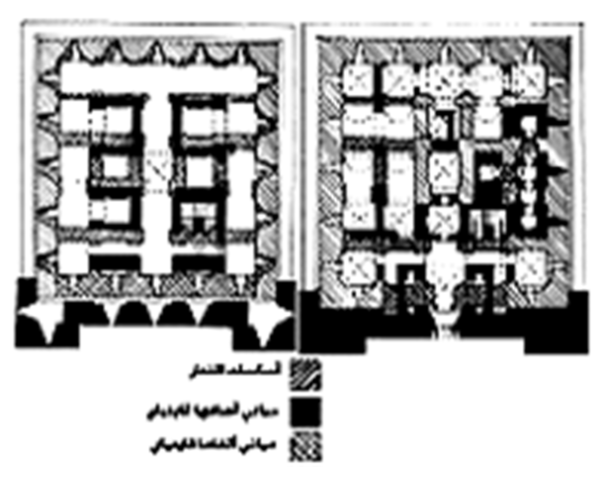
وعلى ذلك فسوف نرى ثلاثة أساليب معمارية مملوكية بهذه القلعة أولها الطراز المعماري للفنار في عهد الظاهر بيبرس (شكل 9)، وثانيها قلعة قايتباي والتغييرات بالفنار والأسوار والأبراج (شكل 10-11)، وثالثها في عهد الغوري (شكل 12).



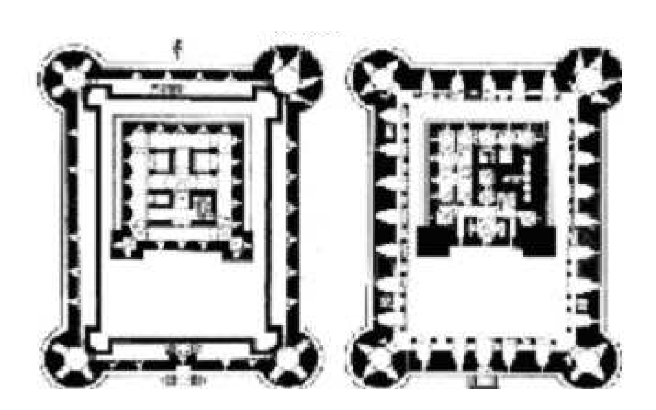
شكل 9. فنار الظاهر بيبرس (رسم الباحث)



شكل10. القلعة في السلطان قايتباي (رسم الباحث)



شكل 11. تعديلات قايتباي على الفنار (رسم الباحث)



شكل12. القلعة في عهد السلطان الغوري (رسم الباحث)

تتكون القلعة من بناء مستطيل يتمثل في الأسوار التي تقع الأبراج الدائرية الأربعة بأركانها، أما المدخل (لوحة 1-2) فيقع في منتصف الواجهة الجنوبية (لوحة 3) يؤدي إلى فناء مكشوف يتوسطه البرج الداخلي الذي كان يتكون من ثلاثة أدوار تعلوها دروة وكان يمثل قاعدة الفنار، كما كانت الأسوار والأبراج تتكون من دورين وتعلوها دراوي عليها شرفات دائرية.



لوحة 1. مدخل قلعة قايتباي



لوحة 2. مدخل قلعة قايتباي وجزء من الواجهة الجنوبية



لوحة 3. جزء من الواجهة الجنوبية نحو الغرب

أما الشكل العام لتخطيط القلعة في عصر السلطان قايتباي فقد كانت الأسوار الأربعة تتكون من صفين من فتحات المزاغل ويعلوا كلا منها عقد مدبب، وأقيم السور على مسناة وبجانبها الخندق الذي يتم تزويده بالمياه من النيل، وكان اتساعه (9.0م) وعمقه (2.5م) ويحدده من جانب القلعة مسناة حجرية يبلغ عرضها (1.20م) ومن الخارج جدار يبلغ سمك هذا الجدار (3.0م)، وكان يتم الوصول إلى مدخل القلعة عن طريق معبر خشبي.

كما قام السلطان قايتباي بتنفيذ المدخل الذي يشبه تماما مدخل البرج الداخلي بقلعة الإسكندرية، حيث يبلغ عمق حجر المدخل (1.10م) مما يدل على أنه كان يعلوه عقد على أكثر تقدير، بينما كان يعلو فتحة المدخل عتب مستقيم من حجر الجرانيت، وتوجد قطعة حجرية كان يثبت بها الباب الخشبي الذي يتكون من ضلفتين عرض كلا منهما (0.95م) ويبلغ اتساع المدخل فيما يلي الكتفين البارزين (1.90م)، وهناك موضعان غائران متقابلان بجانبي المدخل يقع كل منهما خلف ضلفة من ضلفتي الباب، وذلك لتثبيت مزلاج الباب الخشبي بإحكام. (لوحة 4-5-6-7-8).



لوحة 4. مزغل بالبرج الجنوبي الشرقي



لوحة 5. مزاغل بالبرج الجنوبي الغربي



لوحة 6. السور الغربي



لوحة 7. البرج الشمالي الغربي



لوحة 8. القسم الغربي من القلعة

وكان كل برج من الأبراج مزودا بثلاثة مزاغل بكل دور من دوريه وبنفس مقاسات مزاغل الأسوار، ويعلو السور والأبراج شرافات دائرية، وقد تم تدعيم الأسوار والأبراج بقواطيع من أحجار جرانيتية، أما من الداخل فأنشئت الأسوار بالحجر، ويستمر البناء بعد ذلك بالطوب بنفس مستوى أرضية الدور الثاني لتمكين المعمار من إنشاء العقود والأقبية.

وقد أقيم عدد من الدعامات تتقدم الأسوار وتحمل سقيفة تعلو الممر بين الدعامات والسور حيث أنشئت اثنتان منها على جانبي كل مزغل من المزاغل وتبلغ المسافة بينهما نفس اتساع المزغل، وقد كانت هذه الدعامات تحصر ممرا بينها وبين السور، وكانت تحمل بائكة تشرف على الفناء.

أما الدور الثاني من الأسوار فكان يشرف على الفناء ببائكة تماثل تماما البائكة السفلية، حيث أقيمت به أربع درجات سلم تصعد إلى الدورقاعة التي تتوسط البرج، كما كان هناك أربع درجات أخرى تصعد أعلى منطقه البوابة من الشرق والغرب.

وقد زود الدور الثاني بمزاغل يقع كل منها داخل حنية، وهي تشبه في تفاصيلها المعمارية مزاغل الدور الثاني من الأسوار، كما يتساوى عرض الجدار مع الجدار الخارجي للبرج الداخلي. وقد أقيمت أقبية المزاغل وقبو الممر بالطوب وغطيت بطبقة من الملاط (لوحة 9)، ويعلو السور دروة عليها شرافات نصف دائرية.

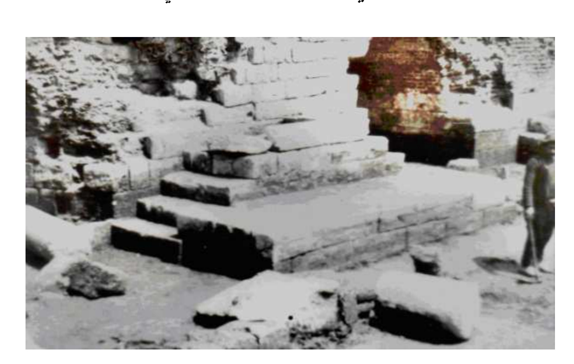
يبلغ الارتفاع الكلى للأسوار (9.0م)، أما الأبراج الأربعة التي يتكون كل منها من ثلاثة أدوار فترتفع عن الأسوار بالساتر والشرافات حتى يصل الارتفاع الكلى للأبراج إلى (11.0م). وكان كل دور من دوري البرج مزودا بثلاثة مزاغل، وأقيم البناء داخل البرج بالحجر، بينما استكمل بالطوب ليتيح الفرصة لتنفيذ الأقبية التي تعلو المدخل والمزاغل كذلك القبة التي تعلو الدورقاعة، وعلى يمين المدخل حجرة ذات قبو أسطواني، أما المزاغل الثلاثة فينتهي كل منها بفتحة الرمي وتوجد المجراة على عمق (0.40م).

أما الدور الثاني فيتم الصعود إليه بسلمين الأول من ممر بالسور الغربي والثاني من ممر السور الجنوبي، ويبلغ اتساع المزاغل (1.60م)، وعمقها (1.85م)، وينتهي كل منها بفتحة الرمي التي تشبه فتحات مزاغل الدور الأول وعمق كل منها (1.20م).

وأنشئت ثلاثة مراحيض بالأسوار واحد بالسور الشرقي واثنان بالسور الغربي، ويضم السور الشمالي سلما من قلبتين بين المزغلين الثاني والثالث غربا (لوحة 10) وتتكون القلبة الأولى من أربع درجات، وتلتقي القلبتان ببسطة تفضي شمالا إلى قلبة أخرى والى قلبتين أخريين تتجه الأولى شرقا وتتجه الثانية غربا لتصل القلبتان إلى الممر حيث الدور الثاني من السور.



لوحة 9. الممر الذي كان يمثل الدور الثاني من الأسوار



لوحة 10. السلم الواقع بالسور الشمالي

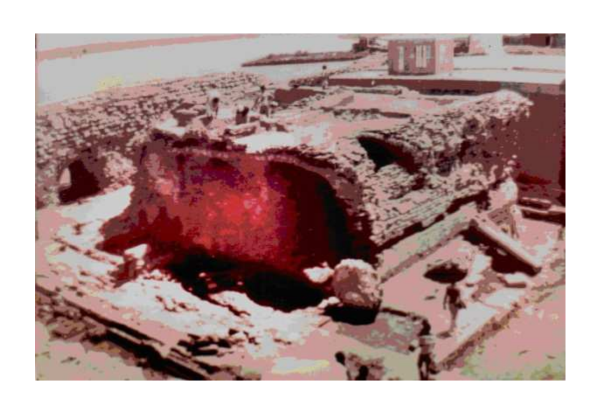
وعندما قام السلطان الغوري بتزويد القلعة بالمدافع أحدث بعض التغييرات بالعناصر الدفاعية، لذلك قام بتوسيع فتحات المزاغل بالقسم الخارجي فيما يلي المجراة وعليها عقد مدبب في الخارج وعقد عاتق، ولم يقم بإنشاء عقود أعلى الفتحات في جميع المزاغل ولكن وجدنا أن بعضها يعلوه عقود عاتقة كل منها من قطعتين منحوتتين من الحجر أو كتلة حجرية.

وتم إعادة بناء البرج الشمالي الشرقي وزيادة قطره بمقدار (1.60م) فتسبب ذلك في تقليل طول السور الشرقي، وأصبح عرض الرصيف المحيط بهذا البرج (0.40م)، وأقيمت أربعة مزاغل بهذا البرج بكل دور من دوريه.

وتم رفع المزاغل بمقدار (0.70م) عن الرصيف وأرضية القلعة بأحجار صغيرة الحجم، ووضع قطعة حجرية كعتب لفتحة المزغل. أما المزاغل التي تم رفعها فهي مزاغل السور الغربي والسور الشمالي، ورفعت مزاغل السور الغربي بمقدار (0.35م)، ورفعت فتحات مزاغل السور الشمالي بمقدار (1.25م) للمزغل الأول والثالث والخامس و(0.70م) للمزغل الثاني، كما تم رفع مزاغل البرجين الشمالي الغربي والجنوبي الغربي بمقدار (0.70م) وتوسيع فتحات مزاغل الدور الثاني بالأسوار بينما ظلت مزاغل الأبراج كما هي.

واستخدمت في بعض فتحات مزاغل الدور الأول قطع جرانيتية وضعت أعلى جانبي الفتحة، ونفذت للبعض الأخر عقود عاتقة يتكون كل منها من قطعتين من الحجر نحت بهما العقد كما في الأبراج، ويلاحظ أن البرج الشمالي الشرقي تم بناءه من الخارج بنفس الأحجار التي استخدمت في تعليه جوانب المزاغل. وبذلك بلغ عدد المزاغل بالقلعة بعد زيادة مزاغل البرج الشمالي الشرقي أربعا وسبعين مزغلا، وهذا يؤكد ما ذكره فانزليب (Vansleb)، [2]، أثناء زيارته للقلعة (1612-1613م) أن بها أربعة وسبعين مدفعا.

أما البرج الداخلي (لوحة 11) فهو يشبه في تفاصيله المعمارية مثيله بقلعة الإسكندرية إلى حد ما، ونجد تشابها واضحا بين الدورين الأرضيين فيهما، وقد ثبت أن الدور الأرضي من قلعة قايتباي برشيد هو نفسه الدور الأرضي من فنار الظاهر بيبرس، وهذا يعنى أن السلطان قايتباي قد استخدم أساسات الفنارين في بناء قلعتيه عليهما.

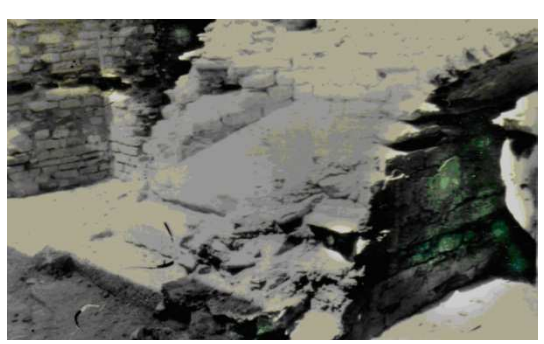


لوحة 11. البرج الداخلي

أما الدور الأول من فنار الظاهر بيبرس فيتكون من جدار خارجي عرضه (2.25م) مدعم بجدار ساند مزود بالأعمدة الجرانيتية والرخامية والبازلتية والقطع الجرانيتية المستطيلة، ويحيط به رصيف من الحجر عرضه (0.50م)، ويبلغ طول كل ضلع من أضلاع المبنى (28.0م) من الرصيف و(25.0م) بعد انتهاء الجدار الساند المائل، ويبلغ اتساع هذا الدور من الداخل (20.50م). ويتوسط الواجهة الجنوبية مدخل الفنار الذي يؤدي إلى ردهة صغيرة تنتهي بردهة أكبر منها في الشمال بها ثلاثة مداخل، أما المدخلان الشرقي والغربي فيؤدى كل منهما إلى حجرتين، أما المدخل الشمالي فيؤدي إلى القطاع المركزي الممتد شمالا، وكان يعلو المدخل عقود مدببة بقي أحدها حتى الآن وهو الفاصل بين الحجرة الشمالية من القطاع والحجرة التي تقع في جنوبها. أما الحجرة الثانية من القطاع المركزي فبها مدخلان نحو الشرق والغرب يؤدى كل منهما إلى حجرة تفضي إلى حجرة أخرى في الشرق، وبالحجرتين الأخيرتين مدخلان في الشمال يؤدى كل منها لحجرة، كما توجد حجرة في شمال الحجرة الأولى غربا أسفل قلبة السلم المؤدى إلى الدور الثاني.

ينتهي القطاع المركزي شمالا بالجدار الشمالي للفنار وعلى الجانبين يوجد مدخلان يؤدي كلا منهما إلى حجرتين، ولكل منهما مدخل في الشرق إلى حجرة أخرى، ويعلو الحجرات أقبية متقاطعة وذلك بالقطاع الثاني شرقا والقطاع المركزي والقطاع الثاني غربا، أما حجرات القطاع الأول شرقا وغربا فهي من أقبية نصف أسطوانية.

لقد كان الفنار مكونا من ثلاثة أدوار يضم كل منها عددا من الحجرات، وبمقارنة عدد الدرجات بكل قلبة من قلبات السلم (لوحة 12) والتي كانت تصعد إلى الأدوار مع سلم قايتباي الموجود حاليا والذي أنشئ على غرار سلم الفنار ويبلغ ارتفاع كل درجة (0.25م) وعرضها (0.35م)، يتبين لنا أن السلم الذي كان يصعد إلى الدور الثاني كان مكونا من ثلاث قلبات عدد درجاتها (3-18-3) أما السلم الذي كان يصعد إلى الدور الثالث فكان يتكون من قلبتين عدد درجاتهما (18-3). ونجد أن الحجرة الثالثة من القطاع المركزي تمثل مركز الفنار يقوم عليها بعد ذلك الدور العلوي الذي يمثل المرقب، ويدور حول الحجرة المذكورة بالدور الأول والثاني السلم المؤدى إلى أعلى.



لوحة 12. السلم بالبرج الداخلي

وبذلك يتكون الدور الأول من الفنار من ثلاث وعشرين حجرة، ويتكون الدور الثاني من سبع حجرات ويتكون الدور الثالث من المرقب الذي يعلوه المصباح. أما ارتفاع الدور الأول فيبلغ (5.00م) وسمك السقف (1.0م)، ويبلغ ارتفاع الدور الثاني (4.50م) وسمك السقف (0.75م)، ويحيط بالدورين العلويين ممر حول الحجرات من الجهات الأربع.

أما ارتفاع الفنار من الخارج فإن الدور الأول حاليا يبلغ ارتفاعه (6.75م)، وترتفع الأرضية المحيطة بالبرج بمقدار (0.50م) عن الرصيف الذي يرجع إلى وقت بناء الفنار، ويبلغ ارتفاع الدور الثاني (5.25م)، وعلى ذلك نستطيع أن نذكر أن ارتفاع الفنار كان لا يقل عن خمسة وعشرين مترا، وكان يحيط بكل دور من الدورين العلويين ممر يحدده جدار خارجي يقوم على الجدار الخارجي للدور الذي يقع أسفله، وبذلك ترتفع أرضية الدور الأول من الفنار بمقدار (1.25م) من الأرضية المحيطة به، ويتم الصعود إليه بسلم مكون من خمس درجات ارتفاع كل منها (0.25م).

وقد استطاع الباحث وضع مخطط الفنار بكل دور من أدواره طبقا لما تم من دراسة تحليلية وتفصيلية لفنار الإسكندرية وقلعة قايتباي بالإسكندرية والأجزاء التي ترجع إلى السلطان قايتباي بقلعة رشيد، وقد اتضح أن أساسات البرج لا ترجع إلى عصر قايتباي بل قام هذا السلطان بإضافة بعض الجدران، وأنشأ حصنا حول الفنار الذي لم يعد كافيا للقيام بالمهام الدفاعية، وبذلك كان يهدف إلى أن يجمع بين مراقبة العدو والدفاع في نفس الوقت.

لقد استخدم السلطان قايتباي أساسات فنار الظاهر بيبرس لبناء برجه واحتفظ بالجدار الخارجي للفنار الذي لم تطرأ عليه أيه تعديلات كذلك المدخل والردهة والحجرتين المركزيتين، وتدل الفتحات التي كشف عنها بالجدار الشرقي للبرج على ذلك، وقد بقيت الحجرة الخامسة من القطاع الأول شرقا ومثيلتها بالقطاع الثاني كذلك الحجرة الرابعة من القطاع الثاني أيضا والحجرة الخامسة من القطاع المركزي، وظل التقسيم المعماري لقطاعات الدور الأول كما هو مع بعض التعديلات.

وبقى التقسيم المعماري بالدور الأول كما كان عليه الفنار مما يؤكد أن السلطان قايتباي قد احتفظ بالفنار مع إحداث بعض التعديلات التي تلاءم إنشاء الحصن حوله، وقام بإضافة برجين مربعين بالزاويتين الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية يبلغ طول كل منهما (6.50م) ويبرز عن جدار البرج بمقدار (2.10م)، كما أضاف بناء خارج الواجهة الجنوبية يربط بين البرجين ويتوسط المدخل الذي يشبه مدخل البرج الداخلي بقلعة الإسكندرية. وحرص على إنشاء حنيتين تكتنفان ردهة المدخل، وتأخير واجهة الحجرات التي تشرف على الممر بمحاذاة الجدار الجنوبي والذي حل محل القطاع الأول جنوبا، وبذلك أصبح طول الحجرة الثانية من القطاع الأوسط في الشرق والغرب (2.50م) بعد أن كان (3.20م).



لوحة 13. مجراة المياه بجانب البرج الداخلي

وقام بإنشاء صهريج بالدور الأول يشغل الحجرات الثانية والثالثة والرابعة من القطاع الثاني شرقا وموقع السلم الشرقي من القطاع الأول شرقا، كما قام برفع أرضيات الحجرات بالدور الأرضي بمقدار (0.75م)، وأصبح ارتفاع الأقبية (4.25م)، كما قام بهدم السلم الذي كان يؤدى إلى أدوار الفنار وقام بإنشاء سلم بالحجرة الثانية من القطاع الأول شرقا ويشغل جزء من الممر الذي يتقدم القطاعات، وقد حل القطاع الأول الذي يمتد من الشرق إلى الغرب محل الممر ويتكون من أربع قلبات يبلغ عدد درجاتها إحدى وعشرين درجة (4-3-7-3 درجات)، إلى جانب بسطة في نهاية كل قلبة، ويدور السلم حول جدار يبلغ عرضه (1.05م) وأسفل القلبة الثالثة قبو ضحل أضيف إلى الجدران يدل دلاله واضحة أنه ليس من أصل البناء.

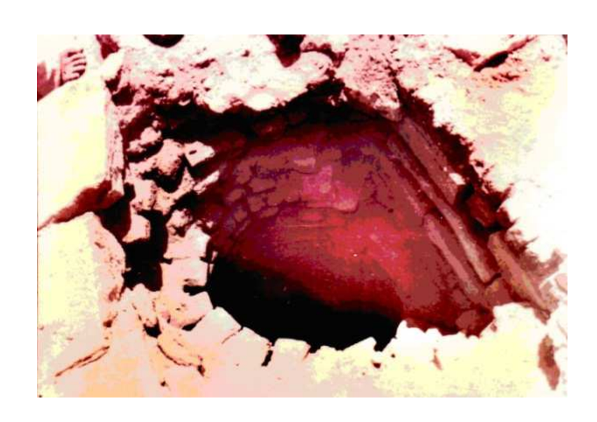
وقام السلطان قايتباي بتقليل اتساع مدخل الحجرة الثانية المركزية إلى (1.0م) بعد أن كان (2.70م) وأعيد بناء القبوين المتقاطعين اللذين يعلوان هذه الحجرة ويظهر ذلك واضحا حيث تم هدم القبوين القديمين بعد تقليل اتساعها، وبعد ذلك تمت تسوية السطح المراد البناء عليه بصف من الطوب، ثم بناء قبوين بعد ذلك بمونة تبدو واضحة. كما تم تقليل اتساع مدخل الحجرة المركزية الثالثة حيث أصبح اتساعه (1.0م)، وأصبح طول الحجرة في الشرق والغرب (3.90م) بعد أن كان (3.20م)، أما الحجرات الشمالية بالقطاع المركزي والقطاعين الشرقيين، فتم تقليل اتساع مداخلهما المؤدية إلى الشرق والغرب فنجد أن المدخل الشرقي للحجرة المركزية الخامسة أصبح (1.80م) وأصبح اتساع المدخل الغربي (1.45م)، وقد تم بناء بئر بهذه الحجرة لتزويد الصهريج بالمياه يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه (0.80م) وله غطاء حجري، وتم وضع ساقية على هذا البئر لرفع المياه إلى أنبوب فخاري يؤدى إلى الصهريج (لوحة 13).

وبالحجرة المركزية الرابعة تم إنشاء حمام مزود بدست للماء الحار وكلجة للماء البارد، ويبلغ طول حجرة الحمام (2.0م) بكل ضلع من أضلاعها وأقيمت جدرانها بالطوب وسمكها (0.50م)، ولم يتم بناء جدار بالغرب والاكتفاء بالجدار الغربي الأصلي.

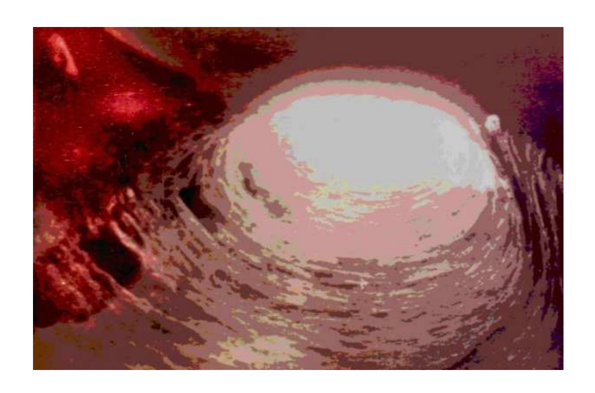
وقام بإنشاء بائكة في موضع الجدار الفاصل بين القطاعين الغربيين عندما هدم السلم الغربي، وتم بناء جدار في الجنوب بعرض (0.85م)، وأنشأ مدخلا إلى القطاع الأول غربا اتساعه (1.75م) ووضع له عتب من الجرانيت عرضه (0.40م) وارتفاعه (0.20م)، وأزال الأكتاف الملتصقة بالجدار الغربي التي كانت ترتكز عليها العقود، وقام ببناء جدارين بين القطاعين الأول يفصل بين الحجرتين الشماليتين والثاني يفصل بين الحجرتين الجنوبيتين، ويبلغ طول الجدار الشمالي (4.05م) وطول الجدار الجنوبي (3.0م) وأصبح طول كلا من القسمين الجنوبيين في الشرق والغرب (4.30م).

أقيمت البائكة من أربعة أعمدة ذات قواعد جرانيتية تحمل عقدين نصف دائريين، وضع العمود الأول بجوار الجدار الجنوبي والعمود الثاني بجوار الجدار الشمالي، أما العمودان الآخران فوضعا متجاورين في الوسط، ودعمت نهايتا الجدارين بكتل جرانيتية، وتحمل الأعمدة ثمانية عقود اثنان منها يسيران من الشمال إلى الجنوب واثنان يرتكزان على العمودين المتجاورين والجدارين الشرقي والغربي، وترتكز الأربعة عقود الأخرى على الجدارين الجنوبي والشمالي الذين يمثلان امتدادا للبائكة وكذلك الجدارين الشرقي والغربي. وتعلو العقود أقبية نصف أسطوانية وأقبية متقاطعة، وتم ربط العقود بثمانية أوتار خشبية، ويلاحظ أن هذه العقود لا ترتكز على أكتاف.

أما القطاعان الشرقيان فيشغل الصهريج (لوحة 14-15-16) جزء منهما واستدعى الأمر سد النوافذ التي كانت تشرف نحو الشرق ونحو بئر السلم الحالي، وأنشئت قصبة الصهريج بالدور الأول من الطوب لها فتحة قطرها (0.60م) ومنفذ بها سلم طرابلسي، كذلك فتحة سحب المياه وعليها خرزة رخامية قطرها (0.50م) وأنبوب توصيل المياه إلى الصهريج وقطره (0.15م) والذي يصعد الماء إليه من الساقية، وأقيمت كل منها بالطوب وغطيت بطبقة من الملاط.



لوحة 14. فتحة الصهريج بالبرج الداخلي من الخارج



لوحة 15. فتحة الصهريج بالبرج الداخلي من الداخل



لوحة 16. الصهريج بالبرج الداخلي

وهناك دليل على أن هاتين القصبتين ليستا من أصل البناء الأول للفنار حيث أن البناء بالطوب وليس هناك اتصال بين بناء القصبة والجدران، كما أن القصبة تتصل بالسقف الذي أنشئ في هذه الفترة حيث يكون البناء بالحجر حتى العقد المتصل بالجدار والذي ينفصل عن بناء القصبة المقامة بالطوب حتى سطح أرضية الصهريج، كما تم تقليل اتساع المداخل الشمالية إلى (1.70م) وأصبح طول الحجرة الشمالية من القطاع الثاني شرقا (3.70م) كذلك أصبح طول الحجرة الشمالية من القطاع الأول (3.55م).

أما الصهريج فيعد من التحف المعمارية الغاية في الإتقان، وهو مكون من سبع حجرات غطيت جدرانها بطبقه سميكة وناعمة من الملاط لا تسمح بتسرب المياه إلى الجدران يبلغ سمكها (0.15م)، ووضعت طبقه أخرى على الأرضية، أما حجرات هذا الصهريج فتسير خمس منها من الشمال إلى الجنوب واثنتان غربي الحجرة الرابعة جنوبا في اتجاه الغرب، وتتصل هذه الحجرات ببعضها عن طريق مداخل معقودة تربطها أوتار من أعمدة جرانيتية تمتد أفقيا مع خط أرجل العقود التي تعلوها هذه المداخل، كما يعلو الحجرات قباب ضحلة يبلغ ارتفاعها غطيت بطبقه سميكة من الملاط.

أما الحجرة الأولى فتبلغ مساحتها (1.75×1.65م) وتتصل بالحجرة الثانية بمدخل معقود اتساعه (1.17م)، وتقع في جنوبها الحجرة الثانية التي تبلغ مساحتها (1.57×1.55م)، وبها قصبة تجاور الجدار الغربي وهى الخاصة بالنزول إلى الصهريج، ويبلغ ارتفاع هذه القصبة (5.25م) وقد أقيمت بالطوب وغطيت بالملاط. وتتصل الحجرة الثالثة بالحجرة الثانية بمدخل اتساعه (1.12م) وتبلغ مساحة هذه الحجرة (1.75×1.58م)، وتتصل هذه الحجرة بالحجرة الرابعة جنوبا بمدخل معقود اتساعه (1.12م) وتبلغ مساحتها (1.76×1.64م)، تتصل بالحجرة الخامسة بمدخل معقود اتساعه (1.15م)، وتبلغ مساحة هذه الحجرة (1.76م×1.66م).

أما الحجرتان الغربيتان فتتصل الأولى منهما بالحجرة الرابعة عن طريق مدخل معقود اتساعه (1.13م)، وتبلغ مساحة هذه الحجرة (1.79×1.65م)، وبها فتحة سحب المياه من الصهريج والمنفذة بالسقف ويبلغ قطرها (0.30م) وتتصل بقصبة تصعد إلى الدور الثاني من البرج، ويقع بجوارها ناحية الشرق أنبوب فخاري قطره (0.15م) كان يمتد نحو الشمال الغربي في اتجاه البئر الموجود بالحجرة الرابعة المركزية، وكان هذا الأنبوب خاصا لتوصيل المياه إلى الصهريج، وينفرد هذا الصهريج بهذه الطريقة حيث يرجع السبب في ذلك أنه مضاف إلى البناء الأصلي. وتتصل الحجرة السادسة بالحجرة السابعة بمدخل يبلغ اتساعه (1.10م) ومساحة هذه الحجرة (1.85×1.53م).

وقد تأكد أن سمك السقف يبلغ (1.0م) وهو نفس سمك الأقبية التي تعلو الأقسام الأخرى من البرج، وأن أرضيه الدور الثاني كانت ترتفع بمقدار (6.0م) عن الأرضية الأصلية وترتفع بمقدار (5.25م) عن الأرضية الموجودة بالصهريج وكذلك الأرضية التي أضيفت في فترة لاحقة بأقسام البرج، كما أن أرضية الصهريج ترتفع عن الأرضية الأصلية بمقدار (0.75م) منها (0.15م) سمك طبقه الملاط.

أما الدور الأول من البرج فكان مكونا من ممر يدور محاذيا للجدران الأربعة الخارجية إلى جانب الحجرة المركزية، وقام السلطان قايتباي بهدم السلالم المؤدية إلى الأدوار العليا، ونتج عن ذلك تكوين تخطيط متعامد، وكان تخطيطا نتجت عنه دورقاعة حلت محل الحجرة المركزية تحيط بها أربعة أواوين، ونفذت أرضيتها ببلاطات رخامية تشبه الموجودة بالإسكندرية (لوحة 17)، ونتج عن تقاطع الأواوين أربعة أقسام تشغل ثلاثة منها حجرات ويشغل السلم القسم الجنوبي الشرقي، وكان لكل إيوان مدخل ذو كتفين بروز كل منها (0.25م) كما تنخفض أرضية الدورقاعة بمقدار (0.25م) عن الأواوين.



لوحة 17. آثار الأرضية بالدور الثاني بالبرج الداخلي

ونجد تشابها واضحا في أشكال المزاغل بقلعة رشيد والأسوار السميكة والأبراج مع قلاع الشام التي قام الظاهر بيبرس بترميمها، وكانت الأبراج تتوسطها دورقاعات دائرية أو مربعة أو مستطيلة، وقد وجدنا الدورقاعات الدائرية بقلعة رشيد، حيث يبلغ قطر البرج (12.5م) وقطر الدورقاعة (5.0م)، وفى هذه الحالة سيكون سمك جدار البرج (7.5م) وهو نفس عمق المزاغل وفتحة الرمي. حيث أنه إذا ما كانت الدورقاعة دائرية فيمكن التحكم في سمك البرج حسب سمك السور وعمق المزغل وهذا ما وجدناه بقلعة رشيد.

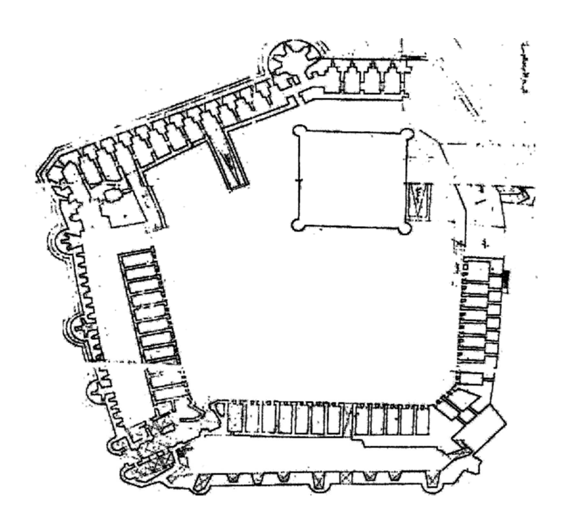
وقد وجدنا أن المزاغل تشبه مزاغل قلاع الشام وبصفة خاصة بالدور الثاني من الأسوار والأبراج وجميع هذه العناصر ترجع إلى الظاهر بيبرس. وبالنظر إلى مخطط قلعة حصن الأكراد بسوريا نجد أن التشابه في العناصر المعمارية يسير إلى مدى أبعد، فكان يتقدم السور من الداخل ممر تحصره دعامات مستطيلة كانت تحمل عقودا وتمثل بائكة تتقدم السور ويرتفع عليها القبو الذي يغطى الممر، ونجد ذلك بقلعة رشيد.

أما تخطيط البرج الداخلي فهو يشبه إلى حد كبير تخطيط فنار الإسكندرية والبرج الداخلي من قلعة الإسكندرية، ويمكن أن نذكر أن فنار الإسكندرية كان مصدر تخطيط البرج الداخلي فضلا عن الأساسات القديمة بالموقع قبل إنشاء هذا البرج، وقد اتخذ الفنار نفس التخطيط المكون من خمسة قطاعات طولية وخمسة عرضية كما ذكر سابقا.

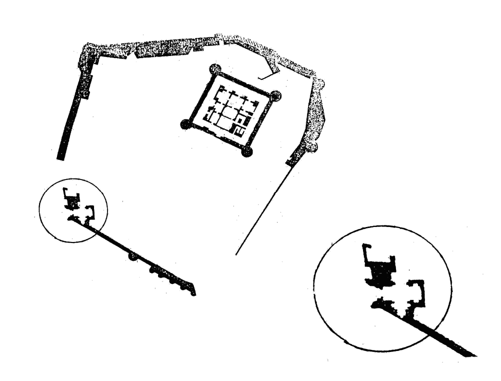
وبمقارنة تخطيط قلعتي قايتباي برشيد والإسكندرية نستطيع أن نذكر أن الظاهر بيبرس قد استخدم فنار الإسكندرية كنموذج أقيمت عليه قلعة الإسكندرية وذلك بعد أن كان الفنار أساسا لفنار رشيد، فقد استُخدم تخطيط فنار الإسكندرية كنموذج لتخطيط الرباطات في عصر المتوكل ومنها رباط رشيد الذي استخدم بدوره كنموذج لفنار الظاهر بيبرس، وقد ثبت مدى التشابه بين تخطيط الدور الأرضي بكل من فنار الإسكندرية الذي استخدم أساسا لبناء البرج الداخلي بقلعة الإسكندرية، والدور الأرضي بقلعة رشيد، وعندما أقام السلطان قايتباي قلعة الإسكندرية على أساسات الفنار استخدم فنار رشيد كنموذج لها في العناصر الزائدة عن بقايا الفنار.

ويتضح ذلك من تخطيط سور قلعة رشيد من حيث المزاغل والممر ومقارنة ذلك مع قلعة الإسكندرية يتضح أن قلعة رشيد أقدم في البناء، كما أن قايتباي أضاف لقلعة الإسكندرية الأبراج الدائرية بالسور، واستخدم الدعامات التي تحمل ممرا في الغرب، والمدخل المنحني ذو المرافق في الزاوية الجنوبية الغربية.

ومن دراسة التخطيط الذي وضعته الحملة الفرنسية لقلعة الإسكندرية (شكل 13) تبين أن البرج الداخلي يتوسط القلعة ويحيط به سوران بكل منهما مدخل في الركن الجنوبي، ويكتنف المدخل الأول بالسور الداخلي برجان يتخذ كل منهما شكلا ربع دائري يذكرنا بمداخل بغداد ومدخل قصر المتوكل الملاصق لمسجد أبي دلف بسامراء، ويؤدى إلى ردهة ذات مدخل منكسر وعلى اليسار مدخل إلى فناء القلعة، وبهذا السور دعامات نصف دائرية في الجنوب، أما السور الثاني فبه ثلاثة أبراج نصف دائرية بالجنوب والغرب ويكتنف المدخل برجان نصف دائريان، ويؤدى إلى ردهة إلى المدخل القديم والفناء.



شكل 13. قلعة قايتباي بالإسكندرية



شكل 14. قلعة قايتباي بالإسكندرية والمدخل العباسي

ونستخلص من ذلك أن المدخل القديم (شكل 14) قد استمد أصوله من المداخل العباسية، وهناك حجرتان للحراسة على اليمين والمواجهة، أما على اليسار فيوجد مدخل إلى الفناء، ونجد دخلتين صغيرتين، واستمدت هذه العناصر بمدخل البرج فيما بعد. واستمر طراز المدخل المنكسر في الإسكندرية مما يدل على أنه متأثر بالأسلوب المعماري السائد في عصر بناء مدينة بغداد وإلى عصر المتوكل الذي أنشأ رباط الإسكندرية، وقد اتخذ من أساسات فنار الإسكندرية لتكون نموذجا للرباطات التي أنشأها على الساحل ومنها رباط رشيد.

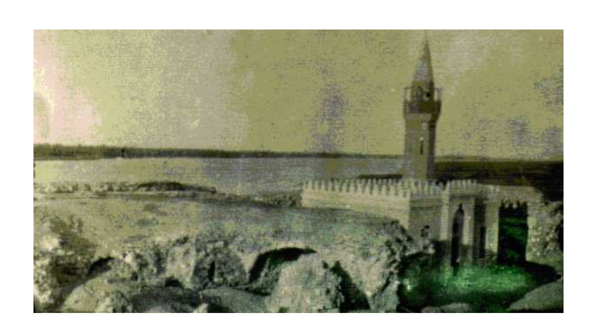
وهذا يعنى أن رباط رشيد كان يحيط به سور لحمايته ليتسع للجند ولتدريباتهم العسكرية، وهذا يدل على أن الظاهر بيبرس قد استخدم السور القديم، كذلك أبقى على أسوار الفنار بالإسكندرية وقام ببناء أسوار فنار رشيد على الأساس القديم، وعندما قام السلطان قايتباي ببناء قلعة الإسكندرية قام ببناء السور الخارجي، وبناء البرج على غرار مثيله بفنار رشيد وكذلك المدخل الذي استخدم بالبرج الداخلي بالإسكندرية ولم نجده بالأسوار، أي أنه نقل المدخل من البرج الداخلي بالإسكندرية إلى السور الجنوبي برشيد مما يؤكد أن البرج الداخلي برشيد سابق لمثيله بالإسكندرية.

ويتضح من خلال الدراسة عدم وجود الحواصل في الإنشاءات التي سبقت الحملة مما يؤكد أنها أنشئت في عصر محمد على. ومن المحتمل أن يكون الظاهر بيبرس قد تأثر بوجود المسجد بالرباطات، وكذلك ببعض الحصون كقصر الأخيضر، وقام بتنفيذ المسجد بالدور الثاني من البرج الداخلي، وبالدور الأرضي بقلعة رشيد الإسكندرية، وأعلاه قبة ومئذنة.

كما أن وجود البرج المربع برشيد في الزاويتين الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية للبرج الداخلي، وعدم وجود هذه الظاهرة بقلعة الإسكندرية يؤكد أن قلعة رشيد أقدم من قلعة الإسكندرية، وعلى أكثر تقدير، إذا كان البرج الداخلي بقلعة الإسكندرية من إنشاء السلطان قايتباي فإن مثيله بقلعة رشيد ليس من إنشاءه ولكنه يرجع إلى فترة الظاهر بيبرس.

ومن الملاحظات التي تؤكد ذلك عدم وجود تشابه بين مزاغل الأسوار بالقلعتين فمزاغل قلعة رشيد ذات جوانب منحنية تضيق نحو الداخل تتقدمها دعامات تشكل ممرا مقبيا، أما في الإسكندرية فالمزاغل تتخذ شكلا شبه منحرف بأضلاع مستقيمة، وهى في ذلك تشبه مزاغل البرج الشمالي الشرقي بقلعة رشيد، مما يؤكد أن المزاغل الأولى تعود إلى عهد الظاهر بيبرس واستمرت في عصر قايتباى وكذلك المزاغل المستطيلة بالدور الثاني من الأسوار والأبراج أيضا، وهى التي سبق الحديث عن أنها تشبه مزاغل قلعة الحصن بسوريا، والتي قام بتعميرها الظاهر بيبرس أيضا.

أما المزاغل الأخرى بأسوار قلعة الإسكندرية والبرج الشمالي الشرقي برشيد فهي من عصر السلطان الغوري، حيث أن هذا البرج قد تم تجديده، وتنفيذ أربعة مزاغل به بدلا من الثلاثة القديمة، وذلك بنفس الأحجار التي استخدمت في رفع المزاغل بالأسوار والأبراج الأخرى. ومن المحتمل أن يكون السلطان قايتباى قد أنشأ المسجد أمام البرج الداخلي حيث لم يعد المسجد الذي يقع بالدور الثاني كافيا لأعداد المقاتلين، وقد استمر حتى القرن التاسع عشر عندما أعيد بناء المئذنة على الطراز العثماني (لوحة 18).

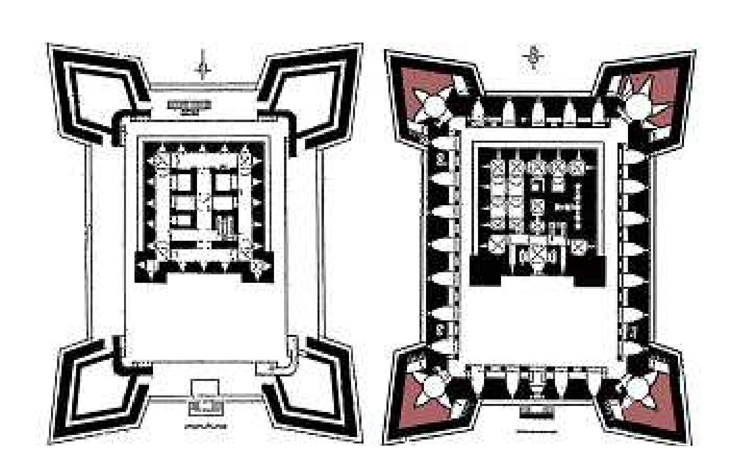


لوحة 18. المسجد والبرج الداخلي

2.2 العصر العثماني وعصر محمد علي

استمر الاهتمام بالاستحكامات الحربية في العصر العثماني ولكن ليس على قدر اهتمام المماليك بإنشاء هذه الاستحكامات، فلم يهتم العثمانيون بقلاع وأسوار رشيد التي أقيمت حولها المساجد والأضرحة، كما تهدمت أجزاء كثيرة من قلعة قايتباي، وأهملت مدافعها وانتشرت حولها الأبنية. ويتضح من أقوال المؤرخين ما وصلت إليه أحوال الاستحكامات برشيد في العصر العثماني من إهمال، حيث لم يطرأ عليها أي تغيير إلا عند بداية عصر محمد على، [14].

تم إجراء تعديلات على قلعة رشيد لعدم قدرتها على استيعاب التطورات في الأسلحة، وتم تغيير أشكال المزاغل وبعض العناصر المعمارية بالأبراج (شكل 15)، أما الأبراج الأربعة فأحيط كل منها ببناء من الطوب يحصر بينه وبين البرج الدائري حجرتان كل منهما مزودة بست مزاغل. وشملت التعديلات الدور الأول من الأبراج، أما الدور الثاني فألغيت المزاغل الأصلية وتم تنفيذ أرضية على ارتفاع (2.0م) ببلاطات حجرية، ويحيط بالبرج جداران بينهما ممر، وأصبح ارتفاع الدور الثاني من الأبراج هو نفس ارتفاع الأسوار، ونفذت سلالم من الأبراج يتكون كل منها من ثماني درجات.



شكل 15. القلعة أثناء الحملة الفرنسية (رسم الباحث)

لقد قام الفرنسيون بالعديد من التغييرات بالبرج الداخلي تمثلت في إنشاء صهريج أخر بالبرج الداخلي شغل الحجرة الثالثة من القطاع الأول شرقا، حيث تم بناء قصبة أمام مدخل الحجرة ذو غلاف نصف مثمن من الخارج ودائري من الداخل، ونفذت للقصبة فتحة من الدور الثاني قطرها (0.50م).

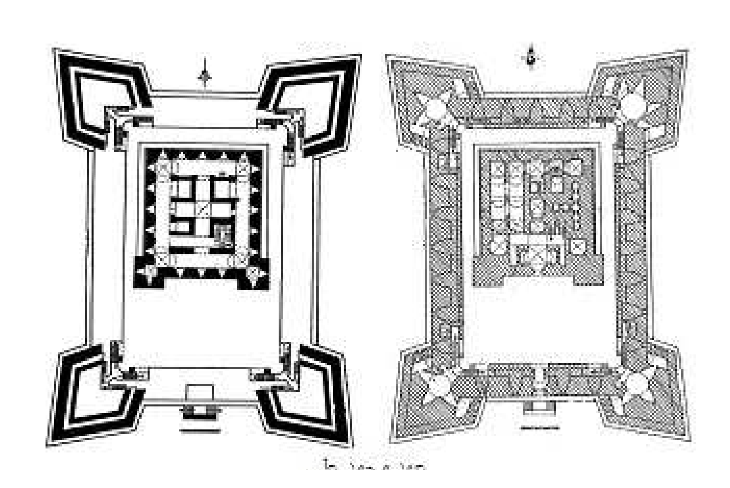
أما الدور الثاني فقد تم استغلال حجراته لإقامة الجنود واضطروا نتيجة لزيادة قوة القلعة الدفاعية إلى سد مداخل الحجرات لاستيعاب أكبر عدد منهم، وتم تقليل اتساع الأبواب المؤدية إلى الأواوين إلى (1.0م)، وتسبب بناء الكتف الأيمن للإيوان الشرقي إلى سد الفتحة الخاصة بسحب المياه من الصهريج الكبير حيث تم وضع قطعة حجرية أعلاها، وكشف عنها بعد أن تمت رؤيتها من داخل الصهريج، وتم كسر الكتف فظهرت هذه الفتحة التي يبلغ قطرها (0.50م). وتم تنفيذ ردهة بكل مدخل اتساعها (1.0م) كانت خاصة لحركة الباب الخشبي الذي يغلق المدخل وتنخفض بمقدار (10سم) عن أرضية الإيوان المكونة من بلاط حجري ونفذت جوانب أرضية الردهة بالرخام والحجر. كما تم تحويل الدورقاعة التي تتوسط الدور الثاني إلى حجرة تفتح من الإيوان الشمالي.

وعلى ذلك يتضح أن تطور الأسلحة كان السبب الرئيسي في التعديلات التي مرت على القلعة على مر العصور، فعندما أنشئت كانت مزاغلها ضيقة يبلغ اتساعها (0.25م)، أما في الفترة التالية فتم توسيع المزاغل إلى (0.85م) ورفعت بعض الفتحات إلى (1.25م)، وتم بعد ذلك رفع القلعة بمقدار (0.75م) وذلك بالنسبة للبرج الداخلي، كما تم تغيير الشكل المعماري للأبراج والأسوار كي تتلاءم واستخدام البنادق والمدافع الثقيلة، فقد تم تزويد الأبراج بحجرات فأصبحت المزاغل للبنادق فقط بلغ عددها بالأبراج الأربعة ثمانية وأربعين.

أما في الدور الثاني فتم وضع المدافع أعلى الأسوار بعد إلغاء الممرات والسلالم التي كانت تعوق وضعها وتم تنفيذ دراوي ذات ممرات أعلى الأبراج للدفاع بالبنادق، أما أعلى الأسوار فاستخدمت بعض المدافع الصغيرة الحجم بالمزاغل بالدور الأول والبنادق بالدور الثاني.

لذلك نجد أن الفرنسيين قد جاءوا إلى مصر ليحدثوا أول تعديل بشكل الأبراج فاتخذت الشكل شبه المنحرف بدلا من المستدير، أما السبب في ذلك فهو الرغبة في استخدام البنادق بدلا من المدافع، وأحاطوا الأبراج بغلاف من الطوب وحولوا المزغلين الأول والثالث إلى بابين. أما أشكال المزاغل الحديثة فهي الأشكال التقليدية.

أما شكل البرج فقد سبق أن وجدنا مثيلا لهذه الأبراج بقلعة فماغوستا بشمال قبرص حيث يلاحظ أن حصن مارينجو (منتصف القرن 16م) وهو شبه منحرف. وهذا الطراز وجد فيما بعد بأبراج قلاع محمد على، وقد سبق أن رأينا هذه الأبراج بأسوار وقلاع أوربا ومنها القلاع الأسبانية والبرتغالية في القرن (17-18م)، حيث يشبه أغلبها تخطيط قلعة قايتباي بعد التعديلات الفرنسية ومنها قلعة (S.ta Cruz) وقلعة (St. luis)، (فولفغانغ مولر (1984)، [30].



شكل 16. القلعة في عهد محمد علي (رسم الباحث)

ومما هو جدير بالذكر أن الممر الذي كان يتخلل الأسوار قد ألغي لتدعيم السور كي يتحمل المدافع، وسدت المزاغل بالبناء، وألغيت السلالم الموصلة إلى الأبراج والسلم المؤدى إلى الممر، وتسبب بناء الغلاف حول كل برج في سد المزغلين القريبين منه، وأصبحت أغلب المزاغل السفلى غير صالحة للاستخدام.

قام محمد على (شكل 16) برفع أرضية الفناء والمدخل والمزاغل بمقدار (0.75م)، وإلغاء المزاغل والممر بالدور الأول واستدعى الأمر بناء جدار تسبب في إلغاء البائكة السفلى والعليا المطلة على الفناء وسد الفراغات بين الجدار والمزاغل، وإنشاء سلمين (0.25×0.25×1.0م) بطرفي السور الأول إلى أعلى البرجين الجنوبي الشرقي والبرج الجنوبي الغربي، وأصبح الصعود إلى أعلى السور يتم من البرج عن طريق سلم مشابه، وبناء جدار أعلى السور للدفاع من خلفه عرضه (1.0م) وارتفاعه (1.0م)، ورفع أرضيات الأبراج كما في الفناء بمقدار (0.75م)، وأصبح ارتفاع القبة (3.25م).

الخاتمة ونتائج البحث

تكمن أهمية البحث في أنه ساعد على التعريف بقلعة قايتباي بمدينة رشيد في العصر المملوكي حتى عصر محمد على ودراستها من النواحي التاريخية والمعمارية، وتنشر لأول مرة الحفائر التي قام بها الباحث والتي كان لها أثر كبير في إظهار التفاصيل المعمارية للقلعة، ومن ثم تتم دراستها دراسة وصفية وتحليلية، حتى أمكن وضع الأسس التي قام عليها مشروع ترميم القلعة.

لاشك أن الدور الذي لعبته مدينة رشيد في التاريخ الحربي لمصر، ووقوفها حارسا لمدخل الفرع المسمى باسمها، وتصديها للعديد من الغزوات اعتبارا من الأسرة التاسعة عشرة من العصر الفرعوني وحتى عصر محمد علي، والاهتمام بإنشاء الاستحكامات الحربية في هذه المدينة مما جعلها من المدن الحربية الهامة ذات الموقع المرموق بين ثغور القطر.

حظيت مدينة رشيد ببناء فنار وقلعتين والسور المحيط بالمدينة في العصر المملوكي، ويرجع الفنار إلى الظاهر بيبرس وترجع القلعة الأولى إلى صلاح الدين بن عرام، أما القلعة الثانية فأنشأها السلطان قايتباي. وذكرت المصادر هذه التحصينات دون أن تحدد مواضعها، حتى أن أحدا لم يتوصل إلى مكان الفنار أو برج صلاح الدين بن عرام.

ثبت أن قلعة قايتباي كانت نموذجا للقلاع التي جمعت جميع الأساليب المعمارية، وكانت من الاستحكامات المتكاملة من حيث المقومات الحربية الدفاعية، فقد كانت مزودة ببرج المراقبة الذي يمثل الفنار ثم حلت محله منارة المسجد، وبلغ ارتفاع البرج الداخلي الذي تعلوه المنارة ضعف ارتفاع الأسوار المحيطة بهذا البرج والمزودة بالمزاغل والشرافات.

ضمت القلعة أربعة أساليب معمارية: الأول الطراز المعماري لفنار الظاهر بيبرس المستمد من رباط المتوكل القائم على فنار الإسكندرية القائم على التخطيط المصري لقصر مرنبتاح في منف وقصري رمسيس الثالث في هابو. والثاني في قلعة قايتباي والتغييرات بالفنار والأسوار والأبراج. والثالث في عهد الغوري. والرابع في تجديدات الحملة الفرنسية ومحمد علي. واتضح التشابه بين القلعتين وقصر مرنبتاح وقصرين لرمسيس الثالث. وكان فنار الإسكندرية المستمد من هذه القصور أساسا للتحصينات الحربية ووسائل المراقبة عبر العصور.

استُخدم تخطيط فنار الإسكندرية كنموذج لتخطيط الرباطات في عصر المتوكل ومنها رباط رشيد الذي استخدم بدوره كنموذج لفنار الظاهر بيبرس الذي أقام السلطان قايتباي حوله قلعته بعد ذلك. وثبت مدى التشابه بين تخطيط الدور الأرضي بكل من فنار الإسكندرية الذي استخدم أساسا لبناء البرج الداخلي بقلعة الإسكندرية، والدور الأرضي بقلعة رشيد.

استطاع الباحث وضع مخطط لفنار الظاهر بيبرس طبقا لما تم من دراسة تحليلية لفنار الإسكندرية وقلعة قايتباي بالإسكندرية والأجزاء التي ترجع إلى السلطان قايتباي بقلعة رشيد، وتم التوصل إلى أن البرج الداخلي الذي يمثل فنار الظاهر بيبرس كان بداية إنشاء القلعة، واتضح أن أساساته أقدم من أساسات القلعة، وثبت مدى التشابه بينها وبين أساسات الدور الأرضي من البرج الداخلي من قلعة قايتباي بالإسكندرية الذي اعتمد على أساسات فنار الإسكندرية.

كان يحيط بالقلعة خندق يستمد مياهه من نهر النيل، ويتم الدخول إليها عبر معبر خشبي يرفع وقت الحصار، كذلك كانت المزاغل تغلق بأبواب منزلقة رأسية حتى لا يتسلل منها العدو.

اتضح أن السلطان قايتباي احتفظ بأساسات فنار الظاهر بيبرس لبناء برجه مع إحداث بعض التعديلات التي تلاءم إنشاء الحصن حوله، واحتفظ بالجدار الخارجي للفنار الذي لم تطرأ عليه أيه تعديلات كذلك المدخل والردهة والحجرتين المركزيتين، وأنشأ حصنا حول الفنار الذي لم يعد كافيا للقيام بالمهام الدفاعية، بهدف الجمع بين المراقبة والدفاع.

قام السلطان قايتباي بتعديل بعض أجزاء البرج الداخلي بفنار الظاهر بيبرس حيث أضاف صهريجا، واستغنى عن بعض العناصر داخل البناء، وأقام سورا يحيط بالقلعة بالعناصر الدفاعية اللازمة لصد أي هجوم. وقام السلطان الغوري بإجراء التعديلات بالأسوار والأبراج، وقام بتوسيع المزاغل وأعاد بناء البرج الشمالي الشرقي، ورفع بعض المزاغل نتيجة الحاجة إلى وضع المدافع بالمزاغل بها.

اتضح من تخطيط أسوار قلعة رشيد ومقارنة ذلك مع قلعة الإسكندرية ووجود البرج المربع برشيد في الزاويتين الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية للبرج الداخلي، وعدم وجود هذه الظاهرة بقلعة الإسكندرية أن قلعة رشيد أقدم من قلعة الإسكندرية.

أنشا الظاهر بيبرس مسجدا بالدور الثاني من البرج الداخلي، وبالدور الأرضي بقلعة الإسكندرية على التخطيط المكون من دورقاعة وأربعة أواوين. وأنشأ السلطان قايتباى مسجدا أمام البرج الداخلي نظرا لأن المسجد الذي يقع بالدور الثاني من البرج لم يعد يكفى أعداد المقاتلين، وقد استمر حتى القرن التاسع عشر عندما أعيد بناء المئذنة على الطراز العثماني.

ثبت أن هذه القلعة أهملت في العصر العثماني، وقد استمرت كذلك حتى جاء الفرنسيون الذين قاموا بترميمها وغيروا من أساليب الدفاع فيها، وكانت أعمالهم مرحله الانتقال من التقاليد الشرقية إلى التقاليد الفرنسية حيث أحدث الفرنسيين أول تعديل بشكل الأبراج فاتخذت الشكل شبه المنحرف بدلا من المستدير، وألغيت الممرات داخل الأسوار والمزاغل المملوكية التي لم تعد تتناسب مع الوسائل الدفاعية الحديثة. وقام محمد علي بإجراء تعديلات على القلعة لعدم قدرتها على استيعاب التطورات في الأسلحة بالأسوار والبرج الداخلي.

تم ترميم القلعة طبقا للتخطيط العمراني والمعماري والعناصر المعمارية التي أسفرت عنها الحفائر، ومن ثم وضعت على الخريطة السياحية لمنطقة رشيد، كأحد الآثار الإسلامية والتي تمثل أحد أهم الاستحكامات الحربية المملوكية. (لوحة 19-20-21-22).



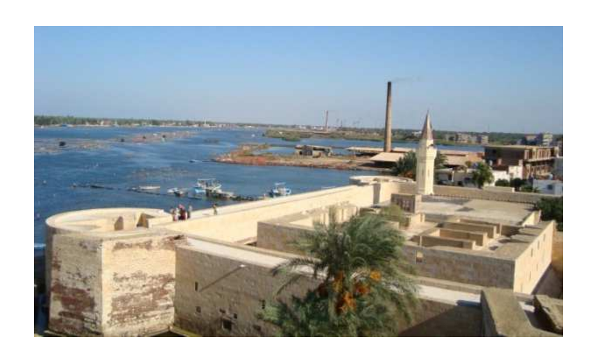
لوحة 19. القلعة بعد الترميم من الخارج



لوحة 20. القلعة بعد الترميم من الخارج



لوحة 21. القلعة بعد الترميم من الداخل



لوحة 22. القلعة ونهر النيل

المصادر العربية

ابن إياس (1893). بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة، 1، ص23، 2 ص ص31-150-151-160-173:177، 4 ص12، 5 ص114.
ابن تغري بردي (1926-1975). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق محمد مصطفى زيادة وآخرين، 7، ص140، 15، ص334.
ابن دقماق (1893). الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ط1، القاهرة، 5، ص114.
بل، أيدرس (1972). مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، ترجمة عبد اللطيف على، القاهرة، ص203.
توفيق والناصري، سيد وسيد أحمد (1977). معالم تاريخ وحضارة مصر، القاهرة، ص ص20- 119-120.
تيرش، هيرمان (2009). فاروس، المصادر الإسلامية القديمة والغربية، ترجمة ميرفت سيف الدين، مركز دراسات الإسكندرية والبحر المتوسط، معهد جوته، مقدمة النسخة العربية.
الجبرتي، عبد الرحمن (1958). عجائب الآثار في التراجم والأخبار - تاريخ الجبرتى، محمد قنديل البقلي، كتاب الشعب، 4 ص ص47-61-424.
جولوا (1978). دراسة موجزة عن مدينة رشيد - وصف مصر، 3، ترجمة زهير الشايب، القاهرة، ص ص77-225.
خفاجة، محمد صقر (1966). هيرودوت يتحدث عن مصر، القاهرة، ص108.
الرافعي، عبد الرحمن (1951). تاريخ الحركة القومية وتطور نظم الحكم في مصر، عصر محمد على، ط3، القاهرة، 2، ص412.
رمزي، محمد (1958). القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، 2/2، القاهرة. ص300.
زكي، عبد الرحمن (1941). مباني القلاع في عهد محمد على باشا، مجلة العمارة 3-3/4.
زكي، عبد الرحمن (1960). قلعة صلاح الدين وقلاع أخرى معاصرة، القاهرة، ص93.
زكي، عبد الرحمن (يوليو 1944) حصون دمياط ورشيد، مجلة الجيش، 4/6.
زكي، عبد الرحمن (يوليو 1944). قلاع مصرية قديمة، مجلة الجيش، 6، ص ص575-576.
السخاوي (1953). الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، 3، ص206- 274، 6، ص176.
عاشور، سعيد عبد الفتاح (1959). مصر في عصر دولة المماليك البحرية، القاهرة، ص210.
عبد الوهاب، حسن (1956-1957). طرز العمارة في ريف مصر، مجلة المجمع العلمي المصري، 38، ص37.
الفلكي، محمود باشا (1967). الإسكندرية القديمة ترجمة محمود صالح الفلكي - الإسكندرية. ، ص ص170-171
فولفغانغ مولر - فينر (1984). القلاع في الحروب الصليبية - ترجمة محمد وليد الجلاد - مراجعه سعيد طيان، 2، دار الفكر – دمشق، شكل31.
قدري، أحمد (1985). المؤسسة العسكرية في عصر الإمبراطورية، 1570-1087ق.م، ترجمة مختار السويفي ومحمد العزب موسى، القاهرة. ، ص ص225-256، ص ص255257-256.
كامل، وهيب (1947). ديودور في مصر، القاهرة. ، ص48
كامل، وهيب (1953). سترابون في مصر، القاهرة. ص ص9-48.
كلوت بك (1930). لمحة عامة إلى مصر، تعريب محمد مسعود، القاهرة، 1. ، ص422
لوبير، جراتيان (1978). دراسة عن مدينة الإسكندرية، وصف مصر، 3، ص318.
ماهر، سعاد (1966). محافظات الجمهورية العربية المتحدة وآثارها الباقية، القاهرة، ص136.
ماهر، سعاد (1967). البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، القاهرة. ص ص123-124.

المقريزي (1896). التبر المسبوك في ذيل السلوك، القاهرة، 1 ص ص465-550-552-557، 2، ص ص72-74-129، 3، ص512، 4 ص ص765-288.
المقريزي (1980)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة المثنى - بغداد، 1، ص ص73-74-198-214.
النويري السكندري (1968-1976). الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، نشر عزيز سوريال عطية، حيدر آباد الدكن، ، 2، ص ص67-108.
نيبور, كارستن. رحلة إلى بلاد العرب وما حولها، 1، رحلة إلى مصر، ترجمة وتعليق مصطفى ماهر. 1، القاهرة، 2012، ص ص17-18-185-186.
هيرولد، كريستوفر (1986). بونابرت في مصر، ترجمة فؤاد أندراوس، القاهرة، ص163).

REFERENCES

[1] Peri Réis. Bahrije de Peri Réis dans Voyage de carlier de Pinon, Blochet, p.169 note 3.
[2] Vansleb. Nouvelle Relation dun Voyage fait en Egypt en 1612 et 1613, p.115.
[3] Van Egmont et Heyman. Travels, II, p.172.
[4] Norden (1795). Voyage D'Egypte et De Nubis, Paris, pl. XV, 2, p.33
[5] Pocke, P. (1743). A description of the East, I, Observation in Egypt, London, p.15.
[6] Denon (1807), Voyage dans la Haute Egypt pendant les campagnes du General Bonaparte, londres, p.16
[7] Lucas. Troiseme voyage, II, p.2.
[8] Totte. Dans charles – Raux, project de conquete de l'Egypte sous Louis, XVI, p.81.
[9] Combe, Et. La fort Qayt-bay a Resette, Bulletin de la Société royale d'archéologie d'Alexandrie, 33, p.22.
[10] Allard (1889). Les Pharos, Paris.
[11] Adler (1902), Revue critique.
[12] Thearch, H. (1909). Fharos, Antike, Islam und occident, Ein beitrag zur Architekturgeschichte.
[13] May (August 1797). Letters from the East, Letter 7.
[14] Sonnini, C. S. (1800). Travels in Upper and lower Egypt, London, pp.135-136-144.
[15] Jean Léon. Description de L'Afrique, p.498.
[16] Gardinen A.S. (1947). Ancient Egyptian Anomastica, I, Oxford, I pp.102-103.
[17] Encyclopedia Britannica, Rosette.
[18] Champollion, L'Egypte sous les Pharaons, II, p.24.
[19] Forster (1922). Alexandria, a history and a guide, Alex. pp.185-186-189.
[20] Budge W. (1950). The Rosetta stone, British Museum - London.
[21] Bevam G .R. Egypt under the Ptolemic dynasty, p.265ss.
[22] Amelineau (1915). La Conquite de L'Egypte par les Arabs, Rev. Hist, pp.119-120.
[23] Briccia (1922). Alexandria and Egyptum, Bergamo, pp.352-365.
[24] Veitmeyer (1900). Leuchtfeuer und leuchtapparate, München.
[25] Veitmeyer (1901). Der Pharos von Alexandria, Berlin.
[26] Rey. Étude sur les monuments de l’architecture militaire des croisés en Syrie, Paris, p.39 et seq.
[27] Berschem, M. V. – Fatio. Voyage, 1, pp.135-163.
[28] Berschem, M. V. Mèmoires de la maisson archèologique du Caire, Meteraux pour un corpus iscriptionum arabicarum.
[29] Deshamps, Chateaux, 1, constaining full bibliographiecal data, Fidden – Thomson, 1, pp.76-82, pls.38-50.
[30] Zapatero, J. M. Historia de los Fortifications de Cartageno, figs.17-24-25 pl.26.